دراسة تحليلية سيكولوجية للرواية الخيالية " ليل وقضبان "

STUDI ANALISIS PSIKOLOGIS NOVEL FIKSI "MALAM DAN JERUJI BESI"

Oleh : Dailatus Syamsiyah¹

Email: dail_sy@yahoo.com

Abstract

Literature is the effective way in promoting idea, thought and the reflection of life. Novel " Lail wa Qudhban" written by Naguib al-Kailaniy talk about the world and the complex interaction among human. Such a large world can be partially simulated into the story that touch the heart and emotion of the reader. Using beautiful languages, Al-Kailaniy presented the works that can be appreciated through multiple perspective. One of that psychological perspective. In this perspective, interaction between and among human can affect changes of personality and behavior, whether if it is positive or negative, even destructive. The destructive behavior –in this story- can be judged as the overflow of "fire in the husk" of the writer whose rights was repressed by otoritarian ruler. Despite not descriptively he mentioned that he as himself in the story, but his selection of story standpoints shows us – as a reader- that the writer knows everything very well, all about the main character in his story; what he thought, what he did, what he desired, even what he imagined about.

Keyword : literature, psychology

Abstrak

Sastra adalah sarana paling efektif dalam mempromosikan ide, gagasan maupun refleksi tentang kehidupan. Novel " Lail wa Qudhban" karya sastrawan mesir Najib Al-Kailaniy ini menceritakan tentang dunia dan interaksi antar manusia yang sangat kompleks. Dunia yang begitu luas mampu disimulasikan secara parsial dalam kisah yang dapat menyentuh hati dan

¹ Pengajar Bahasa Arab pada FITK UIN Sunan Kalijaga Yogyakarta

emosi pembacanya. Menggunakan bahasa yang menawan al-Kailaniy mampu menyajikan sebuah karya yang dapat diapresiasi dari berbagai perspektif. Salah satunya adalah perspektif ilmu psikologi. Dalam perspektif psikologi, interaksi antar personal maupun interpersonal membawa dampak bagi perubahan perilaku seseorang, baik perilaku itu positif maupun negative dan bahkan destruktif. Perilaku destruktif dalam cerita ini bisa dimaknai sebagai luapan "api dalam sekam" sang penulisnya yang ter *repressed* hak-haknya oleh penguasa otoriter. Meskipun tidak secara deskriptif penulis menyebutkan bahwa novel ini menceritakan tentang kisah hidupnya, namun pemilihan sudut pandang cerita -dalam hal ini *objective point of view*- menunjukkan bahwa penulis mengetahui secara keseluruhan apa yang difikirkan, dilakukan, diinginkan, bahkan yang dikhayalkan oleh tokoh utama cerita.

Kata kunci : sastra, psikologi

أ. اختصار رواية " ليل وقضبان "

قد استطاع ادينا هذا - الدكتور نجيب الكيلاني - في قصته " ليل وقضبان " على أن يمسك بخيوط عمله جميعا ببراعة وحذق. فلا يجعل خياطا يفلت منه، أو يختلط بخيط آخر. فيحدث اللبس والاضطراب بمهارة تدعو إلى الإعجاب. وكان نجيب الكيلاني يستطيع أن يقدم لنا كل هذا العالم المضطرب خلال هذه الرواية القليلة الصفحات ، بكل ما فيه من أحداث متلاحمة، وشخصيات متباينة المزاج مختلفة النزعات متفرقة السلوك.

بدأت الرواية- التي تتكون من مائة وثلاثة وثمانين صفحة وسبعة عشر جزءا من القصة- بتصوير الحياة من السجناء في سجن أبي زعل. كانوا عائدين من الجبل الأسود، والطابور الطويل يمضي منهوك القوي، واجم النظارات والأقدام المتبعة تلامس الحصى والرمل في يأس وملل. وفوق الرؤوس شمس تشتعل، إنها شمس أغسطس التي تنصب عليهم بلا رحمة. وكل شيء من حولهم كان قاسيا رهيبا. السجنان الذي يصرح بهم كي يسرعوا، والحرارة الشديدة التي تشوي الوجوه والعمل الشاق - تكسير الصخور في الجبل - والظلال النفسية الحالكة التي تجعلهم يعيشون في ليل الأسى الطويل وذكريات نائية تموج في خيالهم المكدودة، ذكريات الأهل والحب والحرية. والمجموعة من السجناء المصور في هذه الرواية منهم: فارس القاتل أخذا بثأر أبيه، وعبد الحميد تاجر المخدرات، والشيخ سلامة قاتل أخيه. وهؤلاء السجناء الثلاثة ينفذون أيامهم مع السجناء الآخر؛ الرحيل إلى الجبل الأسود لقطع الأحجار وتكسيورها، والوقوف في الصف وراء بعض لأخذ نصيبهم من الطعام. ومع ذلك يسمعون

السب والمهانة واللعن والصراخ بسبب أو بغير سبب لا تفارقون من فم الباشسجان شلقامى، وفي لياليهم يجلسون ويتحدثون عن ذكرياتهم وعن أحلامهم الميته وعن آمالهم الضائعة وعن زوجة أحد المديرين الحسناء - تلك التي عشقت شجينا - ثم ينامون هادئين وطيوف الأمل تدعب أحلامهم. فإذا ما أشرق الصباح يجيئهم صوت السجان قاسيا لا يرحم مؤذنا بالرحيل إلى الجبل الأسود. وهكذا تمضي أيامهم بين أحلام الرجاء وبرائن اليقظة المرة الأليمة.

فالمجتمع خارج السجن قد صوره الكيلاني بأسرة مدير سجن أبي زعل عبد الهادي بك التي تتكون منه وزوجته عنايات هانم وخادمتها الصغيرة. ومنزل المدير يقع على الشارع العمومي الذي يمتد من القاهرة إلى الشرق لا يبعد كثيرا عن مبنى السجن. إنها خطوات معدودة يقطعها عبد الهادي بك كل يوم ذهابا وإيابا في أوقات محددة صيفا وشتاء، ولو لا إحساسه الداخلي بأنه سيد وأنه يستطيع أن يفرض العقاب ويطلق الشتائم ويوقع على بعض الأوراق بإمضائه

ويتسلم مرتبة آخر كل شهر لولا هذا لبدت حياته الرتيبة الجافة شبه
الفارغة كحياة السجناء تماما.

وأ أسرة عبد الهادي بك أسرة لا ينقصها شيء من مال ولباس
وطعام وكرام، ولكن ينقص تلك السعيدة بدون حضور الابن بينه
وبين زوجته عنايات هانم. وذلك أنه رجل مريض بمجموعة من
الأمراض، والعاجز جنسيا إلا إذا استعان بالحقن المنشطة، والزوجة
الشابة ذات الاثنين وثلاثين ربيعا التي تتفجر بالجنس والحيوية وما
يدب بينها من خلافات ومشاكل الزوج بعقده وأمراضه وتحريمه عليها
القدر من الأبناء والزوجة بنزعاتها وأحلامها ومشاعرها المتأججة.

لقد تلوثت تلك السعادة الحيلة بحضور السجين الكهربائي
بينه وبين زوجة المدير الحسنة الأليفة الوافية. فارس السجن المسجون
بجرائم القتل يلوث فراش وكرام عبد الهادي بك. العلاقة الآثمة التي
نشأت بين عنايات هانم حرم المدير وبين فارس السجين. قد وقعت
الذنب والخيانة الزوجية في ليل الظلام فوق فراش المدير. فكررت

الذنب اللعن بعد أن سافر عبد الهادي بالقاهرة سافرا ثانيا لأجل الاختيار من الدواء على الأمراض التي حملها عبد الهادي. وقد انتشر النبأ عن الخيانة الزوجية في كل بيئة سجن أبي زعل. وكذلك قد أصاب فارس بالموت على أيدي عبد الهادي الغيرية الحقدية.

ب. بنية مكونة القصة

ادينا هذا, له قدرة على مزج مختلف المشكلات الحيوية كبنية مكونة القصة (استركتور) في إنتاجه الأدبية. هذا بسبب أن الإنتاج الأدبي أو الحوادث في المجتمع قد توحدت توحدا تماما بوجود العلاقة التبادلية بين عناصرها وبين العناصر الجزئي والكلي أو بعبارة أخرى أن الإنتاج الأدبي هو التركيب الداخلي قد تفهم كالوحدة المحيطة التامة بعناصرها المكونة المتداخلة.

ورواية "ليل وقضبان" لنجيب الكيلاني كالقصة الخيالية الواقعية² قد تبنى من العناصر المتداخل تحتوى فيها؛ الموضوع أو المادة،

² الواقعية في الأدب هي كل شيء قد وجد في الحياة ولكن قد وقع نادرا في الحياة، وكذلك فعلها Henry Guntur Tarigan, الكاتب ليحل الأشخاص الخيالي يعيشون تماما في روايته. وانظر ذلك في Prinsip-Prinsip Dasar Sastra, 1985, PT. Angkasa Bandung, hlm. 122

وحبكة القصة والشخصيات، والموضع ووجهة النظر للكاتب وغير ذلك. فالإيضاح عن العناصر الداخلية في تكوين الرواية لا بسبيل التفاصيل على أساس الكفاءة ومقياس الاقتصادية وبأن البحث في العناصر الخارجية هي أولى.

١. الموضوع أو المادة (theme)

لإنتاج الأدبي الخيالي أساس أو موضوع هدفا من غرض القصة، وقال عنه أحمد الشايب^٣ أن المادة هي ما يشمل حبكة القصة والشخصيات التي تحدد هذه الخطة وترسمها. وأول مقياس لمادة القصة - قاله أيضا - اختيارها. وإن كل ما في الحياة من تجارب وأخلاق وغرائز وعواطف صالح لتكوين مادة القصة وموضوعها وإن تفاوتت درجاتها وقيمتها الأدبية بحسب ما تبعث من مشاعر وما ترسم من مثل وما تقصد من غايات.

وأما التعريف عن المادة عند برووك Brook وفرسر Purser وورين Warren^٤ اعتقاد معين أو عواطف معينة عن الحيات أو عقد

^٣. أحمد الشايب، الأسلوب، النهضة المصرية، ط. ٨، ١٩٩٠، ص.
المصدر السابق، ص. ١٢٥ Henry Guntur Tarigan^٤.

القيم المعينة التي تصوغ الأساس أو الفكر الأولى من الإنتاج الأدبي. وفي الحقيقة، استطاعت المادة أن نعرفها بقيادة القصة نفسها. ومنها على سبيل التعارف بشخصيات القصة وتشخيصهم، وحالة القصة وخطتها. وقد اقترح لنا رابط ساتنتون Robert Stanton⁵ عن كيف نجد مادة القصة وعلى الأخص القصة الخيالية، وهي على سبيل الأسئلة على أنفسنا: لماذا كتب الكاتب هذه الرواية؟ وما الذي يجعل القصة نراها ذو قيمة؟ حقا، لا يمكن لنا أن نجد الجواب من هذه السؤال على سبيل الإثقال من أصحابنا والرجال الآخر، ولكن علينا أن نجيب السؤال بأنفسنا وننظر كيف كانت المادة قد انتشرت في دقيق القصة.

وبتلك التعريف عن المادة أو الموضوع الروائي سنتمكن أن نقول أن المادة الأساسي في رواية "ليل وقضبان" لنجيب الكيلاني هي السجين والمسجونون الروحي والجسدي.

٢. حبكة القصة (Plot)

⁵. M. Atar Semi, Anotomi Sastra, Angkasa Raya, Padang, hlm. 43

هي تركيب الثورية في القصة الخيالية أو المسرحية^٦. لا يفارق حبكة القصة بسير القصة طبعاً. ولكن لا بد لنا أن نفرقهما بأن كثيراً منا نخطئ التعريف بينهما مراراً. فقد امتلأت الحوادث في سير القصة ولكن موجود الحوادث الروائي بسبب أو بحجة معينة. وحبكة القصة هي التي يحرك تلك الحوادث وهي - أيضاً - المادة الروحانية من الحوادث^٧. وفي حالتها الأساسية يتحرك القصة الخيالية من الابتداء (Beginning) ماراً بالوسط (Midle) ثم إلى آخر القصة (Ending). قد اعترف هؤلاء في الأدب بإكسفوسيسي (Exposition) وكومفيليكاسي (Complication) وريسولوسي (Resolution).

وفي رواية " ليل وقضبان " شملت درجة إيكسفوسيسي عن الوصف عن أعمال السجين في الجبل الأسود المصور في أول القصة : " كانوا عائدين من الجبل الأسود، والطابور الطويل يمضي منه منهوك القوي، واجم النظرات، والأقدام المتعبة تلامس الحصى والرمل في يأس وملل، وفوق الرؤوس شمس تشتعل، إنها شمس

^٦. Jakob Sumarjo dan Saini KM. *Apresiasi Kesusastraan*, (PT. Gramedia, Pustaka Utama, Jakarta, 1994), hlm. 93

^٧. نفس المصدر، ص. ٦٣.

أغشطس التي تنصب عليهم بلا رحمة .. كل شيء من حولهم كان قاسيا رهيبا، السجن الذي يصرخ بهم كي يسرعوا، والحرارة الشديدة التي تشوي الوجوه، والعمل الشاق- تكسير الصخور في الجبل- والظلال النفسية الحالكة التي تجعلهم يعيشون في ليل الأسى الطويل وذكريات نائية تموج في خيالاتهم المكدودة... ذكريات الأهل والحب والحرية⁸.

ثم التعريف عن الأشخاص وحالتهم منها، التعريف عن عبد الحميد وفارس في الحوار التالي :

" وتطلع عبد الحميد إلى رجل يسير إلى جواره، وكم كانت دهشته عند ما رأى الدموع تنهر من بين أهدافه وهتف في انبهار:

◊ أنت تبكي يا فارس ؟

◊ وحاول فارس أن يكتُم شهقات توشك أن تنطلق على الرغم منه، لم يستطع أن يجيب ، فاستطرد عبد الحميد :

⁸. نجيب الكيلاني، رواية ليل وقضبان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط. ٤، ١٩٩٦، ص. ٣.

◇ جسبتك لا تعرف الدموع.. .. لا شك أنك مريض، ما رأيتك تبكي قط.. .. وأخذ فارس يجفف دموعه، ورفع ذيل سترته الزرقاء ليسمح عن جبينه العرق، ثم تنهد متحسرا وهو يقول :.. .. زوجة البك المدير عندما مررنا بها رمقتنا بنظرة احتقار وكأننا كلاب نجسة ، آه.. .. يا عبد الحميد.. .. إنها شابة حرة جميلة ، ولا شيء يثقل قلبها عندما رأيته تذكرت أنني قضيت في هذا الليمان عشر سنوات، سجت وأنا في الخامسة والعشرين، وهأنذا أتخطي الخامسة والثلاثين .^٩

ثم التعريف بالبشسجان (الشلقامي) والسجين الآخر فيما يلي :

" كان المسجونون متراصين في الفناء الكبير جلوسا في طوابير منتظمة، وإناء كبير مملوء بالفول المدمس وإلى جواره تل صغير من الأرغفة، والشلقامي فوق مقعده يوزع الأرزاق كل في دوره، ولا يكف عن السب واللعن

^٩. نفس المصدر، ص. ٤

والصراخ بسبب أو بغير سبب، ومن يأخذ "التعين"
يهول إلى زنائه كي يأكل ويستريح من عناء النهار ..
..^{١٠}

ثم التعرف بعبد الهادي بك مدير السجن أبي زعبل في الصف
التالي

".. .. هب عبد الهادي بك من مقعده، لم يكن خفيفا
نشاطا وإن تصنع ذلك إن بطنه المنتفع، والثنيات التي
تخطط عنقه، والشحم الذي يتكاثف حول عينيه كلها
توحى ببطء حركته، وتثير الشك في أن الأمير لاي عبد
الهادي بك مدير سجن أبي زعبل كان يوما ما شابا
عسكريا أنيقا يلفت النظر"^{١١}
وزوجته عنايات هانم :

".. .. كانت السيدة حرمه عنايات هانم تجلس في الحديقة
الصغيرة مشغولة بأعمال التريكو لا ترفع عينها عن الإبرة

¹⁰. نفس المصدر، ص. ٩

¹¹. نفس المصدر، ص. ١٣

والخيط، ولم تستطع أن تنسى أن زوجها قادم بعد لحظات، كانت يداها مشغولتين بالإبرة والخيط، لكنها تفكر فيه، في عبد الهادي بك وهي مضطرة إلى ذلك لقد حرّمها القدر من الأبناء، فليس لديها طفل تهتم به وتفكر فيه عبد الهادي هو طفلها ورجلها وحياتها^{١٢}

ثم التعرف بالشيخ سلامة ونبهة بنت حسن كانت دورها- في الرواية- على لسان الشيخ سلامة وهي ذا الوصف التالي :

".. .. شيخ في الستين من عمره اسمه" الشيخ سلامة" محكوم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة، ويقال إنه قتل أخاه من أجل الميراث، وقد شهدت عليه زوجة أخيه " نبهة بنت حسن عرفات" تلك التي لا يكف عن ترديد اسمها، والتي يعرفها كل من بالسجن لكثرة ورود اسمها على لسان الشيخ سلامة، وهذا الشيخ ليس في حالة طبيعة، إنه يهذي كثيرا، ويخاطب أشباحا غير مرئية، ويحتد في مناقشات وهمية، ويصب لعناته على " نبهة بنت حسن

¹². نفس المصدر، ص. ١٥

عرفات" ويزعم أنها وباء، وريح صفراء، ويهودية بنت يهودي، إنه ملثاث العقل برغم عودته من مستشفى الأمراض العقلية، وبرغم تقرير الطبيب بأنه "صالح للسجن تماما" وكيف يكون عاقلا من يقف الساعات الطوال أثناء الليل داخل الزنزانة ويمسك بحذائه ملوحا بها ويهتف في صوت متحشرج: اخرجي .. . اخرجي يا مجرمة وإلا استدعيت البولس.. ..^{١٣}

ثم الأشخاص الأخرى تمثلهم الكيلاني من الضابط النتجي (ص. ٢٧) والعساكر (ص. ٣٧) وعبد الراضي (ص. ٦٩) وغير ذلك. فالإيكسفوسيسي قد اعترفت أيضا بدرجة التعارف. ثم تشمل درجة كومفليكاسي الوصف عن عاقبة وأذية يواجهها الشخص الرئيسي منها :

أ. ظهور الصدام والنزاع : انفجار الغضب عن الشخص الرئيسي بسبب الإهانة يتلقاها والسجين الأخرى (ص. ١١)، و يجد الشخص الرئيسي العاقبة التي يؤديها مدير السجن. (ص ١١ -

¹³. نفس المصدر، ص. ٣١

١٢), و قدرة ومهارة الشخص الرئيسي (ص. ٢٤) حملته إلى الدنيا يحمله كل ليل (ص. ٣٩-٤١).

ب. قمة الصدام بسبب إزالة الالتزام بالأخلاق والشرعية الإسلامية المنسية (ص. ٩٦)

ج. الذروة : متابعة الآثم الأول (ص. ١٤٢-١٤٤) حالة الشخص الرئيسي السكرى التي يسبب إيزاح سر حبه الملعونة بلسانه (ص. ١٤٦-١٤٧) ثم انتشرت النبأ بين الحارسين والضابط في السجن (ص. ١٤٨-١٥٠)

وبعدها درجة ريسولوسية أو أخير القصة. وفيها يؤدي الكاتب حلة المسألة بإيزاح سر الحب الملعونة بين الشخص الرئيسي "فارس" وبين عنايات هانم على لسان الشخص الرئيسي نفسه (ص. ١٤٦-١٤٨) ثم التفاعل من السجن الآخر عنه (١٦٣-١٦٧) ثم الضابط والحارسين ليقعوا الشخص الرئيسي ويثبتوا الحق عن مسألة الخيانة الزوجية بين فارس وعنايات (ص. ١٥١-١٥٢) فما بلغ التخطيط إلا وقد خطط عبد الهادي والشلقامى لقتل فارس بعد أن يعرف الحق

(ص. ١٧٣-١٧٥) فالإهانة والمهانة قد حملة إلى الموت المخطوط له
(ص. ١٨٠)

٣. التشخيص (Character)

ميول القصة العصرية- رواية كانت أم رواية قصيرة- إلى ضغط على التشخيص من شخصيتها^{١٤}. وكذلك بسبب انتشار علم النفس على الأخص بعد نشوء التحليل النفسي Psycho- Analysis ولها الرؤية أن شحنة الحلم رمز من الرغبات أو الارادات والتجارب المعينات المكونة في العالم اللاشعورية^{١٥}. فكر فرويد Freud أن هناك المساواة بين كل الناس في الرغبات والارادات المخبوءات، وتلك المساواة يسبب حضور الإنتاج الأدبي التي يلمس الشعور والعواطف مخرجاً لتلك الرغبات المخبوءات. ومن هنا قد نظر أخصائي التحليل النفسي Psychoanalyst - خاصة فرويد- بين الإنتاج الأدبي وبين الحلم اللذان يعطيان الاقتناع للرغبات الإنسانية غير مباشرة^{١٦}.

^{١٤}. المصدر السابق، ص. ٦ Saini KM. Dan Jakob Sumarjo

^{١٥}. E. Koswara, Teori-teori Kepribadian, PT.Gresco, Bandung, 1992, hlm. , Lihat juga Sigmund Freud, Sekelumit Sejarah Psiko Analisa, 1986, hlm. 32

^{١٦}. Max Milner, Freud dan Interpretasi Sastra, PT. Intermasa, Jakarta, 1992, hlm. 32

وقد حصل نجيب الكيلاني أن يحكي طبيعة شخص القصة
وهي معروفة على سبيل :

١. وصف حالة ظاهرة من شخص القصة Psychol Description،

وفي المثل فارس عامل رئيسي يصوره كشاب ذي الخامس
والعشرين سنة شديد الهدوء، وعنايات هانم الشابة ذات الاثنين
والثلاثين الحسناء " الطاعة والوافية" لزوجها، ثم عبد الهادي بك
مدير السجن أبي زعل العسكري المتمسك بالنظام ذو العينين
الحادين والرافع بالرأس عند المشي بين السجين، وهكذا.

٢. التصوير عن تفاعل الأشخاص كلما يواجهون الحوادث

Reaction to Even وفي المثل دموع فارس كلما رأى نظرة الإهانة
تلفتها زوجة المدير، وكذلك يتمثل في الحوار بين فارس وعبد
الحميد ، فيما يلي :

- "... أنت تبكي يا فارس ؟

- .." أنظر ألا ترى ؟ زوجة البك المدير، عندما مررنا بها

رمقتنا بنظرة احتقار وكأننا كلاب نجسة .. الخ (

ص. ٣)

وفي المثال الآخر، قبضة بالبرائن فعله فارس على الشلقامي

بسبب الإهانة ، قاله عليه وعلى السجن الآخر، وهي في الصفحة "

هكذا. وأما الإيضاح عن الشخص والتشخيص سنبحثهما كثيرا في

البابين الثاني والثالث .

٤. الموضع (Setting)

إن الموضع على سبيل الاختصار عند بروك Brook^{١٧} حالة

خلفية ظاهرية أو فيزيكية : عناصر المكان والفضاء في القصة،

وليست الحالة الخلفية بمعناها التي تدل على موضع الحوادث ومتى

وقوعها^{١٨} فحسب، بل عناصر هامة رابطة بين الموضوع والمادة

والتشخيص وحالة القصة خاصة في القصة الخيالية^{١٩}. وذلك يصاغ

مادة القصة المعينة وحبكتها من اختيار الموضع. فللموضع معان

¹⁷. أنظر في تارجان كونتور، المصدر السابق، ص. ١٣٦

¹⁸. ياقوت سوسارجو وسيلي، المصدر السابق، ص. ٧٦

¹⁹. محمد سار سمي، المصدر السابق، ص. ٤٦

كثيرة، منها مكان معين وولاية معين وأشخاص معينة بطبيعتهم المعينة وسلوك الحياة وطريقة التفكير المعينة.

وفي رواية " ليل وقضبان " نجد كثيرا من أجزاء القصة التي كانت موضعها يثبت المادة وحبكة القصة، وكذلك يتمثل فيما يلي :

" كان عبد الهادي في طريقته إلى أبي زعل ينفخ في غيظ، ويدخن سيجاره في شراهة برغم تشديد الطبيب بعد التدخين عليه بعدم، ويتجول بنظراته الزائغة هنا وهناك دون أن يرى حقيقة أمامه كان يظن نفسه قادرا على كل شيء وبقي همه أين صحته ؟ أين سعادته ؟ أين زوجته ؟ لم يزل المدير صاحب الشأن، وفي جيبه أوراق مالية، والسجن مملكة الصغيرة، يستطيع أن يحكمها بأي أسلوب، وأن يشير فتلي إشارته، ومع كل ذلك فهو يشعر أنه أتعس أهل الأرض قاطبة لعل هؤلاء المسجونين الذين تذوب قواهم في وقدة الجبل الأسود، أو ينطفئ شبابهم في ظلال الزنازين، لعلهم أسعد منه حالا. ووثبت صورة عنايات إلى خياله

كالوردة الندية ذات الشوك والأريج فأخذ قلبه يدق، لشد ما يحب هذه الخبيثة التي تملأ عليها حياته، وتنسيه هموم الأيام والليالي.. .. وشعر أنه قد قسا عليها، حينما أظهر عدم اكتراثه بتركها.. .. لعنة الله على الغضب الذي ساقه إلى مثل هذا التصرف الأحمق.. ..

.. .. كل شيء ينصح بالأسى والأحزان واليأس وفوق منضده كان صندوق حقن "البراندرين" ملقى في جمود، وأصر عبد الهادي بك على سنانة في غيظ. ثم اقترب من الحقن، وانتزعها من مكانها، وداسها بجذائه في غلظة ثم اختلطت قطع الزجاج الرقيقة المهشمة بالسائل الهرموني الذي ينشط الضعف الجنسي.. .. ثم تطلع إلى قميص نومها، واندفع إليه دون وعي ودفن وجهه فيه، ثم ترك العنان لدموعه، ومن بين دموعه يتمتم، لماذا لماذا تفعلين ذلك يا عنايان؟ إنك تقتلينني.. .. ألا تعرفين أنك كل شيء في حياتي.. .. ؟ لم أكن أشعر بالمرض وأنت إلى جوارى. لم

أتعذب بالقلق إلا عندما رأيت في عينيك نذر التمرد والنفور
أتكرهيني حقاً؟ هل أنا وحش كما تزعمين؟²⁰.

ومثال الآخر يتمثل في الوصف عن السجين التالي :

" تمدد فارس فوق " برشة" تغطيه البطانية من قمة رأسه إلى
أخمص قدمه، كان صدره يعلو ويهبط، ولتنفسه صوت واضح
يغرب من الغطيظ وتطلع إليه عبد الحميد في حيرة، لكن
سرعان ما أخذت حيرته في الانقشاع.. .. ليس ما يراه
جديداً عليه، كل مسجون له عشرات الأحوال إنه يضحك
ثم يبكي ويغني ثم ينتخب كأنشى فقدت عزيزاً لديها، ويسكن
في ارتياح ثم تفاجئه نوبة صرع قاسية، أغلب المسجونين
هكذا.. .. يعيشون حياة متقلبة متغيرة تثير العجب، لكن
حيرة عبد الحميد بها، وشيوعها خلف الأسوار جعلته ينظر
إليها دون عجب. ويعالجها في رفق واطمئنان . وفي الغد
سيكون فارس -لاشك - أحسن حالا، وفي الجبل تحت

²⁰. نجيب الكيلاني، المصدر السابق، ص. ٦٣-٦٥

وهج الشمس الحرقه سوف يمسك بمعوله ويضرب به
الصخرة، وينجز عمله المقرر، وكل شيء ينتهي إلى خير..
٢١.

٥. وجهة النظر للكاتب (Point of View)

إن وجهة النظر هو نظر الكاتب أي وجهة النظر يأخذه
الكاتب لنظر الحوادث^{٢٢}. وهو متعلق بصناعة القصة كيف كان
الكاتب يعبر نظره الإنساني بطريقة حسنة أي كيف كان يختار الطبيعة
التي تقص القصة وكيف كان يختار الحوادث القصصية التي سيقدمها.
وهناك أنواع أساسي لوجهة النظر في الإنتاج الأدبي الخيالي:

١. يقص شخص القصة القصة " The First Person Narator "

وبكلمة أخرى يتكلم الكاتب كعامل في القصة.

٢. يعلم الكاتب كل شيء ويعلم ما يفكر العامل ما يعاطفه

ويستطيع الكاتب أن ينظر أخلاقه وسلوكه من كل جانب "

The Omniscient of View " وفيه أيضا استطاع الكاتب أن

²¹ نفس المصدر، ص. ١٠٢

²² يقوب سومرجو وسيني، المصدر السابق، ص. ٨٢

يعلق سلوك العامل ويتكلم بالقارئ مباشرة. وهذه الطريقة
لائمة للقصة التاريخية والتربوية والفكاهية.

٣. ما تسمى بـ "Objective Point of View" وفي هذه الطريقة
يعمل الكاتب كما في طريقة "Omniscient of View" ولكن
لا يعلق بسلوك عامل القصة بآلة. ويكره أن يدخل فيما
تفكر العمال. وفي العالم الواقعي استطاع الإنسان أن ينظر ما
فعل الآخر وبنظر ما يعمل الآخر نستطيع أن نقدر ونثمن
حياة نفسه الروحية وسلوكه وطريقة تفكيره وعواطفه وغير
ذلك. وهذه الطريقة يرجو الكاتب من القارئ أن يشترك
بتفسير ما كتبه الكاتب على الإيضاح.

فطريقة وجهة النظر الذي استعمله نجيب الكيلاني في روايته "
ليل وقضبان" وهي الطريقة الثالثة Objective Point of View"، وذلك
كأن الكيلاني يريد أن يطلق نفسه من كل تورط القيمة ويقدم لنا ما
قد حدثت، كما يتمثل في قطعة القصة التالية:

" لم يتكلم فارس، ولم تطف بخياله الجائع صورة الحمام المعشو ولا كوب الشاي أو السجائر، لم يتذكر سوى صاحب الوجه الفاتن يضج بالنداء الغريب، ونبراتها الرقيقة الرحيمة، ورائحة العطر المميز الذي ينبعث في خياشيمه الآن: إنه لا يطمع في غير الرؤية . مجرد رؤيتها يجعله ينتعش، ويفجر في قلبه ينابيع السعادة العظمى، وهل يطمع عاقل في أكثر من هذا ؟..²³

وأیضا في القطعة الأخرى :

" واستيقظت في الصباح ذابلة العينين، كان الصداع يدق كالمطارق في رأسها، ورغبة جنونية تسيطر على مشاعرها.. . إنها تريد فارس، وفارس هناك خلف الأسوار يلحق أساه في زناناته الضيقة، ويثرثر مع رفقاءه بلا معنى، أو على سفح الجبل يكسر الصخور، ويبدل شبابه وحيويته وطأة الهجير، وهمست لنفسها: " عندما يخرج فارس من السجن، ويتم الأفراج عنه فلن أتركه. يمكنني أن أقنع عبد

²³. نجيب الكيلاني، المصدر السابق، ص. ٩١

الهادي بك بأن يجعله "جنايني" يرعى الخضراوات والبرتقال
والزهور. سيكون خادما أميناً لا شك، ولن يمكنه أن
يعترض لأن سجيناً سابقاً مثله لن يجد عملاً يقتات منه.
ثم إن كلمتي لفارس أمر واجب التنفيذ، ويكفي أنني سأهبه
قالي وجسدي.. . ! وابتسمت عنايات لهذا الخاطر
الصبياني الذي يغذى أحلامها الحبسية ..^{٢٤}

ج. وصف الأشخاص المادية والنفسية

قد استطاع الدكتور نجيب أن يصور لنا تصوير البيئة المادية
"الخارجية" الممثلة في الجبل الأسود والزنانات وما يضطرب داخل
السجن من حياة. وثانياً، تصوير البيئة النفسية "الداخلية" الممثلة في
تصوير نفسية السجناء وما يضطرب بداخلهم من نزعات وما تجيش به
نفوسهم من آمال ورغبة. ولنبداً بشخصية "عبد الهادي بك" مدير
السجن، إنه السجن إنه يصفه وصفاً خارجياً، فيقول:
"إنه لم يكن خفيفاً نشطاً، وإن تصنع ذلك".^{٢٥}

²⁴ نفس المصدر، ص. ١١٤-١١٥.

²⁵ نجيب الكيلاني، رواية ليل وقضبان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٦، الطبعة الرابعة، ص.

ثم يأخذ في وصف بطنه المنتفخ، والثنايات التي تخطط عنقه،
والشحم الذي يتكاثر حول عينيه، ويقول إنها "توحي ببطء حركته،
وتثير الشك في أن الأميرألاي عبد الهادي بك مدير سجن أبي زعليل
كان يوما ما شابا عسكريا أنيقا يلفت النظر".²⁶ فإذا تركنا هذه
الصورة الخارجية، وانتقلنا إلى صورته الداخلي، نجد أن الكاتب يمهّد
لذلك بقوله إنه "لولا إحساسه الداخلي بأنه سيد، وأنه يستطيع أن
يفرض العقاب ويطلق الشتائم ويوقع على بعض الأوراق بإمضائه
ويتسلم مرتبه آخر كل شهر، لولا هذا لبدت حياته الرتيبة الجافة، شبه
الفارغة، كحياة السجناء تماما".²⁷ ورغم الجبروت الذي كان يعامل
به رعيته - السجناء - حتى لقد لقبوه بوحش السجون المصرية²⁸،
فإنه كان من قرارة نفسه ضعيفا منهارا حتى ليصل به الأمر في مرة من
المرات إثر مشادة بينه وبين زوجته إلى البكاء، ولقب "الوحش" الذي
كان يطرب حينما يسمعه منسوباً إليه، ملأ نفسه رعباً حين وجهته
"عنايات هانم" في ثورة غضب، نفس الرعب الذي طالما ملأ به قلوب

²⁶ نفس المصدر، ص. ١٣.

²⁷ نفس المصدر، ص. ١٤-١٥.

²⁸ نفس المصدر، ص. ٦٥.

الآلاف من المسجونين. و"نجيب" يعرض لضعف عبد الهادي بك في أكثر من موقف، فعندما تصرخ زوجته في وجهه "أكرهك"²⁹ تنغرس هذه العبارة في قلبه كخنجر مسموم، ويتساءل في فزع "ماذا لو هربت منه؟"³⁰ ويأتي الجواب في شكل مونولوج داخلي "لو حدث هذا لقتلها، أجل القتل أخف عقاب لمن يطعنه في كبريائه وشرفه".³¹ يفكر في القتل كحل لمشكلته تماما كأني مجرم من أعماق الصعيد. ونواحي التفسخ الداخلي فيه كثيرة، فهو خلو من القيم، يقبل الرشوة ويبررها بأنها حقوق مفروضة، فهو يبيع للمحتاجين من المساجين خدماته، نظير مبلغ بسيط، ولن تخسر الدولة - على حد قوله - شيئا.³² بل إن انهياره النفسي ليلغ حد الشناعة حين يدبر لمقتل فارس بعد أن تأكد من اعتدائه على شرفه وكرامته.³³ والواقع أن الدكتور القاص قد دقق في رسم هذه الصورة ذات الوجهين، الخارجي

²⁹ نفس المصدر، ص. ٢١.

³⁰ نفس المصدر، ص. ٢٥.

³¹ نفس المصدر، ص. ٢٥.

³² نفس المصدر، ص. ١٣٣.

³³ نفس المصدر، ص. ١٧٤.

والداخلي لمدير السجن، بكل ما فيه من ضعف وبكل ما بداخله من تمزق.

أما "عنايات هانم" فالكاتب يصورها في صورة المرأة الحسنة المتفجرة بالسحر والحيوية، فإذا ما نظرنا إليها من الرواية الاجتماعية، فهي سليلة أسرة عريقة: تتمسك بالتقاليد، وعندما نالت "البكالوريا" أرادت أن تتم تعليمها ولكن أباهما أثر أن يمضي في إجراءات الزواج. فالمرأة في نظره مكانها المنزل. ومن جهة أخرى فقد كانت تميل إلى شقيق زوج أختها المهندس، غير أن مجلس العائلة أثر عليه عبد الهادي بك، الذي تشاء الأقدار أن يكون عاقراً، فتحرم من أن يكون لها أولاد تهددهم وتناغيهم. تلك عنايات هانم من "الخارج" أما عنايات هانم "من الداخل" فقد رسم الكاتب صورة دقيقة لها، فهي قد استسلمت لمصيرها كما "يرتضى المذنب مصير السجن"^{٣٤} وهي تعيش حياة زوجية يسودها الملل والوحشية والإحساس بالغربة. وبالرغم من وصولها إلى العام الثاني والأربعين؛ فهي مازالت تعيش بمشاعر فتاة مراهقة، فلم يكد زوجها يسمح لها باصطحابه إلى القاهرة حتى

...³⁴ نفس المصدر، ص.

شعرت أن قيودا مرهقة قد انحلت عن ساقها، كانت تمضي كالغزال الرشيق، وهي تشرب كل ما يقع عليه بصرها في عشق، وتقوم ببعض أعمال لا تفسر لها إلا أنها تعبر عن رغبتها نفي الإنطلاق والتحرر كتجرع زجاجة كوكاكولا من بائع جوال. وشراء بعض المجلات المصورة، ورواية غرامية وكرغبة في إملاء إرادتها وإثبات وجودها الحر، ترفض العودة مع زوجها إلى أبي زعل بعد زيارتهما الأولى للقاهرة، شاعرة بالارتياح بعد رحيل زوجها بدونها. والكاتب يصور زلتها تصويرا دقيقا، فهو يعبر عن أحاسيسها بعد ارتكاب الفاحشة وتبريرها لجريمتها الأخلاقية من خلال "مونولوج داخلي" رائع: "هي تعلم الآن لماذا يهفو الناس إلى الخطيئة، ليس الجوع وحده هو الذي يغري باختلاس الطعام. الخطيئة في حد ذاتها لها إغراء لا يمكن مقاومته في بعض الأحيان، ولها نكهة حريفة تفتح الشهية". وهي عندما توطد نفسها على الخطيئة فإنها تعد نفسها لها إعدادا خاصا، فهي كما تقول: ستعيش في أبي زعل وستبتسم في وجه زوجها وتشمن له الطاعة العمياء في ظاهر الأمر، ثم تفعل ما تشاء بعيدا خلف الستار،

وهكذا ازدوجت شخصيتها فهي أمام الناس الزوجة الطاعة الوفية التي يمدح الناس سلوكها، ويشنون على رقتها وأبها، وهي في الخفاء، أمام "فارس" الخاطئة التي لا تعرف للشرف معنى. ولا للطهر والعفاف مدلولاً، والتي يصل بها الأمر في سبيل شهواتها أن تفكر في قتل زوجها حتى يخلو لها مع عشيقها الجو. وبهذا يكتمل التكوين النفسي "الداخلي" لهذه المرأة التي تعيش بالغرب من عالم السجناء وكأنها واحد منهم تماماً. وهكذا تستوي هذه المرأة أمامنا بشراً سوياً بفضل ريشة الدكتور نجيب الصناع.

أما "فارس" كما سور الكاتب شخصيته فهو الشاب الذي دفعه أهله إلى القتل أخذاً بثأر أبيه، فيزج به في السجن حيث يعيش فيه حياة ضائعة يكتنفها القلق والسأم والضياع. وهو يفكر في الهرب ويرسم الخطط، وينام هادئاً والأمل في الخلاص يملأ أحلامه حتى إذا انبلج الصبح ذابت آمانياته، وشاعت الخسرة في قلبه. وهو إنسان لم تسلبه حياة السجن شعوره بالكرامة تماماً، فهو يشعر بالأسى حين يحس أن زوجة المدير (في أول الرواية) قد رمقت السجناء بنظرة

احتقار، وهو يتعدى على الشلقامي ويقذف بطبق الفول المدمس في وجهه عندما يقذفه بالرغيف شاتما" كلاب أولاد كلاب"³⁵. وهكذا عاش في السجن حتى طلعت على حياته عنايات هانم حينما ذهب إلى منزل البك المدير لأول مرة مصلحا النور الكهربائي، لقد صدمته كلمة " تفضل"³⁶ التي نطقت بها، فهو دائما مسوق بالعصا متعلق بالأوامر لا يعامل كإنسان. ويعرف فارس لونا جديدا من الأرق، ويتخيل نفسه مديرا للسجن ييصق في وجه الشلقامي ويركله بجذائه اللامع، وأخيرا -هذا هو المهم- زوجا لعنايات هانم الفاتنة.

ويلتقي بزوجة المدير لقاء آثما، ويعيش نهب الشعور بالذنب، ومع ذلك فإن شعورا خبيثا بالانتصار يطفو على السطح، أو ليس هذا الذي حدث هزيمة للبك المدير. وفي المرة الثانية التي يلتقي فيها بزوجة المدير كانت نوازع الخوف ووحزات الضمير لا وجود لها، وتفخم هذه العلاقة شعوره بالكرامة، ومن ثم فهو لا يود أن يظهر أمام محبوبته بمظهر الذيل. ولهذا فهو يحاول الاختفاء منها حين نزور

³⁵. نفس المصدر، ص.

³⁶. نفس المصدر، ص.

السجن حتى لا تراه في هذه الصورة المزرية، وهو يشعر بجرح بالغ لكرامته حين يهوي عليه العسكري بالسوط أمامها، وعندما ينكشف الأمر ويعرفه كل من بالسجن، تتشح أحلامه بالسواد، وينشب الخوف والعذاب مخالبهما في قلبه، وإنه ليتساءل : " لماذا قتل ؟" لماذا جاء إلى السجن ؟ لماذا وقع بين ذراعي عنايات هانم ؟" وعندما لا يجد الجواب تستبد به رغبة في الفرار، في الهرب من الناس، الانزواء في زنزانة حيث يأمن النظرات القاتلة والهمسات المشينة، هناك حيث يجد الهدوء والراحة، ولكن هيهات، إنها مأساة الإنسان وقدره، صورها الكاتب بصدق وإخلاص.

وشخصية " الشلقامي" الباشسجبان، طاغوت السجن، والذي يسوم السجناء صنوف العذاب، حتى أنه لا يتورع عن الاعتداء على سجين عجوز. هذا الشيطان الذي لا يفكر في أخذ يوم إجازة - على حد قول المسجونون - والذي لا يعرف الرحمة، يعتبر السجن عالمه الأوحده الذي يؤكد فيه ذاته، ويشبع في نفسه غريزة السيطرة داخله. هذا الطاغية المتجبر، جبان برعم قسوته، فهو عندما اعتدى على

السجين الشيخ نظر فوجد كل المسجونين ينظرون إليه في حقد، فتطلع إليهم في فزع" لو رماه كل واحد بحصوتين لخر صريعا" وداخله رعب، أيفر ؟ ستكون هذه نهايته. وفكر في أن يستجد بزملائه ورؤسائه من الضباط ولكنه أدرك بدهائه الفطري أن خير علاج للموقف هو التماذي في القسوة، ومن ثم فقد انحال على السجن المسكين ضربا وركلا وهو مجرم بالفطرة، وما قسوته على السجناء إلا تعبير عن هذه النزوع الإجرامي الكامن في نفسه، تنفس عن الشر المتأصل في أعماقه، وإنه ليقدم على الجريمة بالفعل حين يقبل أن يكون أداة التنفيذ للحكم بالإعدام الذي أصدره المدير على السجن فارس.

أما شخصية" الشيخ سلامة" فهي حقا من الشخصيات القصصية النادرة إنها ولدت ومعها وثيقة البقاء، شهادة بالخلود. وإن الأديب ليستحق التهنئة لابتكاره هذه الشخصية الفذة. الشيخ سلامة المحكم عليه الأشغال الشاقة المؤبدة، لأنه قتل أخاه من أجل الميراث، والذي شهدت عليه زوجته أخيه" نبيهة بنت حسن

عرفات". هذه الشخص الملتات الذي يعيش داخل السجن حياة عجيبة. إنه يرجع كل مصائب العالم إلى " نبيهة بنت حسن عرفات" فهي وباء وريح صفراء ويهودية بنت يهودي. إنه يزعم أنها اتفقت معه على قتل زوجها، ثم شهدت ضده.

إن جميع المصائب التي تحدث في السجن بسببها، فهي وراء الاعتداء على الشلقامي، وهي وراء اقتراف فارس للفاحشة، وهي وراء مصرع فارس، وهي لا تتمثل له في الواقع فحسب، بل في الحلم أيضا، فقد رأى حلما عجيبا مؤداه أنه كان هو وفارس وعبد الحميد يركبون زورقا والظلام دامس والرياح عاصفة وكانت وجوههم سوداء مثل الزوج وكان البحر واسعا لا شطآن له ولا أعماق، وتأقي نبيهة بنت حسن عرفات ماشية على الماء وسرعان ما ينطلق منها الريح الأصفر، فدفع بالزورق في عصبية ويغرقون... .. شخصية غريبة.

وهناك بالطمع شخصيات أخرى كغيرة، كشخصية عبد الحميد، رفيق فارس والشيخ سلامة في الزنزانة. وهناك أم عنايات وأبوها. وكل هذه الشخصيات استطاع نجيب أن يصورها من الخارج

والداخل على السواء، حتى لقد باتت شخصيات حية بحق، فهي تكاد تنبض بين السطور بالحياة وتتحرك صاعية على الأقدام لفرط ما بثه الكاتب فيها من ضروب الصدق الفني.

د. التعامل الشخصي والتغير السلوكي فيه

وعلى الأساس النظرية، أن التيار السيكلوجية التي تستعملها الباحثة في بحث الموضوع الدراسية وخاصة دراسة سلوك الأشخاص الروائي في رواية "ليل وقضبان" هي المذهب الإنساني الذي يرى أن الإنسان ينبغي عليه من الناحية الأخلاقية وأن يقصر اهتمامه على ما يدخل في النطاق الإنساني من صفات وفضائل وأعمال.³⁷ ويرى الإنسان - حقيقة - طيب ومحيد. وفي منظور المذهب الإنساني أن القوة الحبيثة أو المخربة اللتان كانتا في الإنسان هي إنتاج البيئة الفاسدة وليست طبيعة الإنسان.³⁸

فالإنسان كمخلوق اجتماعي يحتاج إلى الإنسان الآخر في حياته اليومية، وكذلك كانت بوجود التعامل بينه وبين الإنسان الآخر

³⁷، مصدر السابق، ص. ٢٠٢. DR. Zaky A. Badawi.

³⁸، مصدر السابق، ص. ١١٧. E. Koswara.

والبيئة المحيطة به. والظواهر الاجتماعية تتحقق داخل ثلاث بيئات على النحو التالي:^{٣٩}

١. البيئة الطبيعية، هي عبارة عن المؤثرات الطبيعية التي تؤثر على الإنسان، مثل المناخ والأرض والماء والنبات والحيوان.

٢. البيئة الثقافية، وهي أنماط السلوك التي يمارسها الفرد والتي تخضع في تشكيلها لما تقضى به القيم الاجتماعية القائمة على العادات والأعراف والتقاليد. وهي نتيجة لتعامل الإنسان مع بيئة الطبيعية والاجتماعية.

٣. البيئة الاجتماعية، هي عبارة عن نماذج العلاقات الاجتماعية السائدة في المجتمع وعلى الإنسان لأن يشبع دوافعه ورغباته من هذه البيئات الثلاث.

فأما البحث في كيفية سلوك الأشخاص ستستعمل الباحثة التقسيمين الاتجاهين الرئيسيين اللتين قسمهما محمد ليبب النجيجي هما:^{٤٠}

³⁹ الدكتور زيدان عبد الباقي، قواعد البحث الاجتماعي، المكتبات الكبرى، القاهرة، ١٩٨٠، الطبعة الثالثة، ص. ٣٦.

⁴⁰ مقطوف من عبد المنعم محمد حسين، الأسرة ومنهجها التربوي لتنشئة الأبناء، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٨٥، ص. ٢٧.

١. الاتجاه الأول، دراسة الفرد مركزا على الاهتمام بالتكوين الفيزيقي والإرث البيولوجي والصفات النفسية واتجاهات الشخصية وغير ذلك من عوامل متعلقة بالفرد ذاته.

٢. الاتجاه الثاني، دراسة الموافق التي تنمو من خلالها الشخصية الإنسانية وتتكون نتيجته الاستجابة لهذه المواقف.

ومنطلق من الإيضاحات السابقة، فدراسة تحليلية لسلوك الأشخاص في روايات "ليل وقضبان" سنبدأ بتحليل سلوك العامل الرئيسي وهو فارس. هو جيل شاب ذو الخامس والعشرين سنة. العمر الذي كان صاحبه يركب درجة الرجل الرشد الأول "Early Adulthood" قاله ه.س. بيكر (H.S. Becker) في مقالته "Personal Changes in Adult Life"^{٤١} أنه عصر التنسيق على تصميم حيوي ورجاء اجتماعي جديدين. وفي هذه الدرجة يرجا بفارس أن يلعب دوره الجديد في مجاله: كولد ورفيق، ودوره كرجل في درجة الرشد. وأن ينشر موافقه ورغباته والقيم التي تحيط به في تحفيظ دوره الجديد.

⁴¹ Maktufman, Andi Mappiare, *Psikologi Orang Dewasa*, Usaha Nasional, Surabaya, t t , hlm. 30.

وبعد ذلك - قول بيكر أيضا - أن الخامس والعشرين سنة عمر يثبت فيه الشخص وضع مقعده "Setling Down Age" وفي هذا الحال كان فارس في وضعه كالولد المطيع لوالديه في عمره الرشد الأول مطلوباً له بالقتل أخذاً بثأر أبيه حتى أصابه جريمة القتل في سجن أبي زعبل. وكان الرجل - في هذه الدرجة - قد نَمى تصميمه الحيوي فردية، على الرغم من أن تنميته ليست في المجال الإيجابي فقط، بل السلبي. فالمقتلة فعلها فارس أخذاً بثأر أبيه لها وجهين:

(فالأول) وجه سلبي: أن العمل بذهاب حياة الناس عمل جنائي وجريمة حرّمها الدولة في أي مكان سواء كانت دولة إسلامية أم دون إسلامية وخاصة بمصر التي كانت أثر الإسلام فيها قد يسيطر العالم المصري. وتلك الجرائم فعلها فارس قد يخالف النظام الاجتماعي الذي كان ميزان للعمل خيراً كان أم شراً، استقامه كانت أم انحرافه - على حد تعبير "Summer W.G." .^{٤٢}

⁴² Maktufman Saparinah Sadli, Persepsi Sosial Mengenai Perilaku Menyimpang, Bulan Bintang, Jakarta, 1977, hlm. 41.

(والثاني) وجه إيجابي: الإسلام دين الخالص وجاء به رسول كريم يحمل الكتاب قانونا أساسيا الذي أخذ به الناس المسلم في شيء شتى مرافق الحياة: الروحية، والعقلية، والبدنية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، وغير ذلك. وفي هذه الدرجة، أن فارس مسلم أصيل حقيقي يقوم بالقصاص على القتل الذي أصابه أبيه. فالقصاص قد شرعه الإسلام للمسلمين جميعا. وهذه الحجة أخذها فارس ليقبل أمرا بالقتل دالة على إيتاءه للطاعة والديه، على الرغم من أنه مخالفة بالنظام الاجتماعي المحيط بالمجتمع المصري. ومن هنا قد وقع التعارض القيم.

فعصر الرشد الأول - لم يزل يقول بيكر - عصر كثير المسألة (Problem Age) إن مسألة جريمة القتل وعقابها لم يمضى تماما إلا وقد أصابته مسألة جديدة مطلوبة له بدوره كرجل، وهي المشكلات الفردية أي العلاقة الحبيبية بينه وبين عنايات هانم حرم المدير صاحبة الوجه الفاتن الذي يطبح بالنداء الغريب - على حد تعبير فارس - ونبراتها الرقيقة الرحيمة وذات رائحة العطر المميز. وندامته التي مازالت

تقف في قلبه الندامة عن مخالفة الحق الزوجية بين عنايات وزوجها عبد الهادي الذي تقوم الدنيا وتقع من أجله والذي يلمع على كتفه التاج الذهبي والنجوم. وتلك الندامة ممثلة في الصفحة التالية وهي الحوار بين فارس وأعماقه النفسية:

"عندما يعرف المدير الحقيقة ستكون الكارثة الكبرى ستقوم القيامة، أ يتصور إنسان أن يتناول فارس السجين الحقير على شرف رجل عظيم؟ أين كان عقلك يا فارس؟ وكيف نسيت نفسك ومركزك؟ وتجاهلت العيون التي ترمقك من كل جانب؟ ألا ترى يا فارس الجبل الأسود، وسيات الحراس، والرعب الذي ييسط جناحيه المشئومين على عالم السجن والحياة التي يتهدها الخطر والفرع من كل جانب!!!... آه... أين كان عقلك يا فارس!"^{٤٣}

والمشكلة من ناحية المساجين الذين ترشقه عيونهم من كل جانب لكأنها سهام تصيب قلبه الحزين، وهمسات كثيرة تدور، وفارس ليس لديه أدنى شك في أن الألسنة تلوك سيرته وتحكي قصة الخطيئة

⁴³ نجيب الكلائي، المصدر السابق، ص. ١٦٠.

مع زوجة أكبر رأس المنطقة، ولم يقف عند نظرات المسجونين وهمساتهم، بل كان الحراس يأتون ويقيسون فارس بنظراتهم النارية، ويصيح أحدهم: صباح الخير يا فارس "باشا" وتهوى هذه الكلمات على أذن فارس كالسياط... أ هو باشا؟ إن السخرية واضحة لا تحتاج إلى إمعان فكر، هل - لأنه عشيق زوجة المدير - أصبح يحمل لقباً جديداً يرفعه من طبقة المعذبين والمحتقرين إلى الطبقة الراقية؟ والأخرى الضغط والإهانة والاستهزاء التي يتلقاها فارس بعد أن انتشرت النبأ عن الخيانة الزوجية دوماً على التوالي حتى قطعت الموت - على أيدي عبد الهادي الغيرية - عن المشكلات الدنيوية الأليمة.

وبجانب تلك الدرجة (كثيرة المسألة) اعترفت عصر الرشد الأول بعصر التواتر الانفعالي (Emotional Tension). قد دعمت البيئة المحيطة بالفرد الرشد على ظهور التواتر الانفعالي الذي يواجهه الفرد "Mc. Clusky" و "G. Jensen" في مقالتهما "The Psychology Of Adult" (١٩٥٩) يقولان:^{٤٤} إن الفرد الذي يسكن في البيئة غير لائقة له تظهر التوتر الانفعالي ثابتاً، وهذا الحال يؤدي إليه الحيات والحقيده

⁴⁴ ، مصدر السابق، ص. ٢٦. Andi Mappiare

الضعينة على وجود الانتهاك الوضعي الغريبة لرغباته وقدراته. فبيئة سجن أبي زعبل لإيلائهم ولا يقابل لفارس -بابة- كان عاداته ساكن في الأسرة الهدئية السعيدة. وكانت بيئته الجديدة يتصاعد انفعاله تصاعدا حاقدة. وذلك يدل كم كان انفعاله يفجر تفجيرا سرعة في توجيه المسألة. وكان الموقف الانفعالي مظاهرة لحاجته من الأمن والرخاء والشرف.^{٤٥} وهما المروءة يتضمن فيه الحاجة إلى الاعتماد النفسي والكفاءة، والسيطرة، والقدرة والنجاح ، والحرية والآخر الحاجة للاعتراف من الغير الذي تحتوى فيها الهيبة، والاستسلام، الاعتراف والاهتمام لديه، الوضع والإشراف. كانت هذه الحاجات لا ينالها فارس في السجن حتى يواجه عنايات هانم التي تؤتي إليه حاجته للاعتراف والشرف وهي التي تغير حجة فارس عن السجن، وكان ليل أبي زعبل - عنده - أصبح جميلا حانيا، والصخور السوداء لم يعد لها في خياله ذلك الصدى المرعب المخيف. وعنايات التي تمسك بذراع فارس وتلفها حول خصرها وهي التي تحمل فارس إلى وادي الخطيئة

⁴⁵ ، مصدر السابق، ص. ٧٦. Frank G. Goble

أكبر من جريمة الأخذ بالثأر تلك الجريمة القديمة تبدو أمام خياله كأنها عمل تافه صغير إلى جانب ما أقدم عليه الليلة من خطيئة. ومهما يكن من أخطاء فعله فارس وبأبعد ما يمكن الانحراف قد عمله، ولكن صفته الإيجابية الإنسانية قد استيقظته بحضور إحساس الندم والأسف الذي يخرج من أعماق قلبه، وهكذا يتمثل في الحوار بينه وبين أعماق قلبه التالي:

"...اتشعت أحلام فارس وذكرياته بالسواد، وانتشب الخوف والعذاب مخالبهما في قلبه، ليس هناك شيء اسمه السعادة؛ لماذا قتل؟ لماذا جاء إلى السجن؟ لماذا وقع بين ذراعي عنايات هانم؟ لماذا هو بالذات؟ دائما كالغريق اللاهث بين الحياة والموت، يحاول بريحه من العناء والشقاء فلا يأتيه، كل شيء معقد مخيف مر المذاق".⁴⁶

والثاني: شخصية عبد الهادي بك مدير سجن أبي زعبل هو صورة إنساني كامل من ناحية مادية، مسكن متفخر، وزوجة جميلة، ومتوظف برتبة، وأموال وشرف، وكان صورته الفيزيقي الجذاب لا

⁴⁶ نجيب الكيلاني، مصدر السابق، ص. ١٥٩.

يفارقه عنه. وترتيب وظيفي من حاجات الإنسان الأساسي كما عبرها إبراهيم مسلو^{٤٧}. كانت يملكها تماما حاجته إلى المروءة والاعتراف من الغير ينالهما من درجته ومحله كالمدير، وحاجته للحب والمحبة أو الإحساس على التملك والامتلاك قد ينالها من زوجته التي تهتم به وتفكر فيه، وحاجته إلى الحماية والوقاية والأمان والرخاء قد يمسكها في أول القصة وحاجته الفيزيولوجي يمتعها بكل الإمتاع من المناخ، والماء، والمطعم، والمسكن، والنام، والعلاقة الجنسية التي يمتعها إلا في شهر من أوائل الزواج.

ومرضه السكر اللعين والعاجز الجنسي الذي يتحمله، وقدرته إلى الأبناء التي حرمها الطبيب قد جعلته بالشعور غير الآمان. وتلك الحالة جعلته يحس بإحساس الخوف على هرب زوجته الحسناء ويغيره كرجل قسوة متكبر ديكتاتوري لا أحد يستطيع أن يعصي أوامره ولا عنايات هانم زوجته. وكذلك ليست إلا التعويض عن ضعفه بعدم القدرة على إيتاء النفقة الباطنية إلى زوجته. وأما ضبط سلوكه وحزمه وصراحته يقدمها أمام المساجين تسامية على مجموعة أمراضه وضعفه

⁴⁷. فرانج ج. جبلوا، المصدر السابق، ص. ٩٢

الجنسي- إلا إذا استعان بحقن الأنسولين-^{٤٨}، فعبره عنه نجيب الكيلاني بشيء واحد بينه وبين الأنسولين. فكبريائه وعجرفته كانا يستر رجولته الضائعة.

وكان موقفه الذي يفارقه من رجل آخر على أنه زوج وافي أمين ورومنتيكي معافي لزوجته المحبوبة. فحبه لعنايات قد جعله رجل بصفات متعارضة متناقضة، فكيف يكون الرجل الذي يتمتع الحياة القاسية (كمدبر السجن) أصبح لطيفا مدللا رومنتيكيًا ؟ ويحول الدكتاتوري والمستبد الممقوت إلى المعافي ؟ والمطيع بتعاليم الدين الإسلامي إلى القاتل؟ ذلك لا يمكن أن يتوقع اللهم إلا أنه يجب عنايات هانم. وتلك الصفات المتضادة المتناقضة مكمونة في نفس وشخص واحد، وهو عبد الهادي. وقد سجنته الحب بالإحساس اللاأمني وكذلك قد فسدت حبه. فالحب عند إبراهيم مسلو صلة سليمة بين المحبين وفيها التفاهم والتسامح، وذلك قد فسدت إذا كان واحدا من المحبين مرتعب على إبراز ضعفه وخطأه، وأيضا كرل

⁴⁸. نجيب الكيلاني، المصدر السابق، ص. ١٥

مانيجر - Karl Menninger - يقول: لا يكون الحب أضعافها وأفسدها الإحساس بعدم الاعتناء خاصة، بل الإحساس بالخوف⁴⁹.

والثالث: عنايات هانم زوجة عبد الهادي بك المدير الشاب الجميلة ذات الاثنين والثلاثين سنة، ولها الحماسة والشعور المتأججة. وعند مفهوم بيكر أن الاثنين والثلاثين عمر - وسط الرشد الأول - يحس فيه الفرد خوفاً تتعلق بإظهار شخصيته، وعمر يواجه فيه المسائل والمشكلات تتصل بتوجهات اجتماعية أو علاقة زوجية في توجيه النزاع العائلي الذي يدب الزوج وزوجته⁵⁰.

وهكذا ما يحيط بعنايات هانم، كانت حاجتها المادية قد سبعتها من مال، ومادي، ومسكن، وملبس، ومطعم، وهلم جرى. ولكن شعرت عنايات أنها ناقصة في حياتها، وهي كزوجة شابة تحتاج إلى المودة والحب أكثر مما أعطاها زوجها الذي لم يزل يتمتع بأعماله اليومية في السجن، وترجو إلى حبه العميقة - كزوجات أخرى - التي لم تكن تجدها إلا في أوائل شهر من زواجها، وذلك بسبب الأمراض

⁴⁹. فرنج ج. جوبلو، المصدر السابق، ص. ٧٥

⁵⁰. أندي مافاري، المصدر السابق، ص. ٢٧

يتحملها زوجها. وفي ناحية أخرى كمرأة في عمرها التناسلي (كذلك قول بيكر) تطلب كمالها بوجود الأبناء خلال عائلها، وكذلك لا يعطيها زوجها الطب. وتحول عنايات محلها كمرأة كريمة لا بد لها أن يحافظ المرتبة العائلية وشرف زوجها، وهي تقع في مكانة معضلة ذي حدين ويصيب لها يثير ويفك من العادات والتقاليد المحيطة بها. فعنايات كمسافرة عاطشة في أثناء البحر، إذا شربتها ماءها لا تشبع بل يتزايد عطشها شديدا، أجل، عطشت عنايات إلى الحب ليست بمعناها الصلة بين المحبين وما يربطهم من شعور متبادل⁵¹ فحسب، بل أبعد منها هي حاجتها الجنسية التي كانت هي من حاجات فيزيولوجية- على حد تعبير إبراهيم مسلو- من مناخ، وماء، ومسكن، ومطعم، ومنام، التي لا بد للإنسان بأدائها.

فالعاجز جسنيا حمله عبد الهادي بك جذر عن كل مسألة حياتها الزوجية، على أنه أبعد ما يكون عن الرجل الكامل. وفي اصطلاح سيجمون فرويد أن الجذر الأصيل عن كل مسألة في العالم

⁵¹ . محمد مظهر سعيد، علم النفس الاجتماعي من الإسلام والعالم الحديث، دار النهضة، مصر، القاهرة، دون السنة، ص. ٤٥

هو الحياة الجنسية⁵²، ولعل صحيح ما قاله فرويد إذا تطبقناه بالنسبة إلى قضايا تتواجه إلى عنايات هانم، وجدير بالذكر أنها كإنسان ذي عقل لا يسلطها مجرد شهوتها.

فانحراف عن العادات الاجتماعية والدينية فعلته عنايات بوادر المرض الأعصابي التي تتعلق بالحاجة للآمن، والحاجة للاتصال مع الغير، مثل الحاجة إلى الاعتراف والاستسلام والإحساس بالملك والتمليك والحاجة إلى المحبة التي لا تشبع. وخلفية المسألة الانحرافية هي كانت عنايات الشابة الجميلة والعبقرية مغולה بطاغية زوجها، مانعة بالاتصال مع الغير، بل بقيت في بيت والديها اليومين قد يؤدي إلى غضب عبد الهادي، فالخطأ المميت فعله عبد الهادي على أنه يتمتع بأعماله التي كانت تساميته على الأمراض التي قد أفسدت نفسه. ومن هنا شعرت عنايات أن حاجاتها الأساسي لا تشبع من استقلال، وتكلم، وحرية لتفعل ما تشاء لطالم لا يسبب التخسير على الغير. وثانيا : لا يشبع بحاجاتها الجنسية المطلوبة لاستمرار النسل.

⁵². Sigmund Freud, Sekelumit Sejarah Psikoanalisa, PT. Gramedia, Jakarta, 1986, hlm. 9

ولقد سببت مجموعة الأمراض حملها عبد الهادي الانحرافات في حياتها الزوجية، فالحاجة الجنسية التي تشبع جعلت عنايات يبحث عن الإشباع خارج زوجها. فالإنسان- كما قال لويس ليهي (Louis Leahy)⁵³ يريد السعادة كت تحقيق عمل إرادته مطلقا. فإرادة الإنسان هو الغرض الذي لم يزل طيبة وجودا تقديرها مادية كانت أم روحية، جسمية أم خلقية، واقعية أم شبه الواقعية. فإشباع الجنسية المنحرفة فعلتها عنايات هي صالحة طيبة، ولكن طيبة بوجودها شبه الواقعية التي كانت هي جريمة إذا نظرناها كلها، ولكن ننظر الجريمة كشيء طيبة على أنها لأجل الغرض الأوطاء، وهو نعمة فيزيكية في مكانها غير ملازمة.

والرابع: شلقامي الباشسجان صورة دقيقة عن رجل قاسي القلب والعقل وطاغوت سجن أبي زعبل الذي يسوم السجناء صنوف العذاب. كان مقعده كبشسجان قد جعله رجلا قاسيا شركسيا وعانفا بلا حب ولا حنان. وقوله الذي يخرج من فمه ذم

⁵³. Louis Leahy, Manusia Sebuah Misteri, PT. Gramedia, Jakarta, 1993, hlm. 146

معيب وشتائم كالكلب، والقذر، والحمار والخنازير وكلاب أولاد كلاب قاله كل ليل ونهار. وقد بدأ يومه بالسباب والشتائم المقذعة ثم أتبع ذلك بصفعاته الشرسة علة الوجوه والأقفية حتى قدماه قد تعبنا من كثرة ماركل بخدائه. وكانت شخصيته المزاجية قد دفعت السجناء لأجل القتل عليه. والقتل على الشلقامي شيء واجب عليهم، على الرغم من الصعوبة ليقتلوه. وهناك شيء مرغوب فيه كلما يواجهه المدير فيكون في ذلك الحين أيضا رجلا نظيفا وخضوعا شديدا.

تصدر كلتا الشخصيتين من عاملين : العامل الداخلي الكامن في نفس الشلقامي، والعامل الخارجي يعنى البيئة . فالأول، اعتمادا على قول مسلو أن الإنسان حقيقة طيب وله القدرة للعمل الصالح وللحب والمحبة وللاتنباه على الغير. وكذلك الشلقامي الذي يبرز موقفه اللطيف وشديد الخضوع والانتباه تجاه المدير، على الرغم من أنه دوافع لحاجته الآمن والاعتراف. والثاني، العامل الخارجي الذي كان نتيجة من اتصاله وتعامله مع البيئة المحيطة به. وكانت السادية والشتائم قالها الشلقامي دافعة على حاجته للاعتراف التي لا تشبع.

وفي ناحية أخرى يحلو محله كباشسبحان قد يطلب عنه ويدعوه إلى
المواقف القاسية السادية.

والإحساس المضطرب يعبر بمختلف الوسائل، وذلك يتمثل
بالمملكة السلطانية التي تدور في إحساس صاحبها، بل تعبر تلك الملكة
نفسها على مختلف الصياغ، مثلاً الطموح والهجم المزدوج والتملك
الشهي، وسهولة الانفجار في الظن والكراهة، وبالعكس ذلك لا حس
ومتلق وشديد الخضوع المتحيز.

والخامس: سلوك الشيخ سلامة هو عامل زيادي في الرواية قد
صوره نجيب الكيلاني كصاحب مرض النقص "Deficiency Diseases"
الذي لا يستطيع فيه صاحبه أن يعترف حاجته ويشبعها. والشيخ
سلامة قد أصاب به المرض ليس انفعالية فحسب، بل كانت فكرته
مخطأ دائماً. وهو ينظر الدنيا كشيء مريع مخيف، وكثير الخطر ومهانة
وهو يرجع كل مصائب العالم إلى نبيهة بنت حسن عرفات يهودية
بنت يهودية على حد تعبير.

كان الشيخ في الستين من عمره محكوم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة، إنه قتل أخاه من أجل الميراث، وقد شهدت عليه زوجة أخيه " نبيهة بنت حسن عرفات " تلك التي لا يكف عن ترديد اسمها، والتي يعرفها كل من بالسحن لكثرة ورود اسمها على لسان الشيخ سلامة، وهذا الشيخ ليس في حالة طبيعية، إنه يهذي كثيرا، ويخاطب أشباحا غير مرئية. ويحتد في مناقشات وهمية، ويصب لعنايته على " نبيهة بنت حسن عرفات " برغم عودته من مستشفى الأمراض العقلية، وبرغم تقرير بأنه " صالح للسجن تماما " وكيف يكون عاقلا من يقف الساعات الطوال أثناء الليل داخل الزنزانة ويمسك بجذائه ملوحا بها ويهتف في صوت متحشرج: (أخرجي .. أخرجي .. يا مجرمة وإلا استدعيت البولس) وأحيانا يلجأ إلى الصمت المطبق لا يفتح شففيه لبضع ساعات، وليس يبدو عليه شيء غير عادي إلا تلك النظرات المخيفة المسددة إلى المجهول.

ولم يكن الدكتور نجيب الكيلاني بتصوير حياة الأشخاص السابقة، وإنما انتقل إلى الأشخاص كشخصية عبد الحميد رفيق فارس

والشيخ سلامة في السجن، وأم عنايات وأبوها نعرف أن الدكتور الصانع يصورها صورة دقيقة خارجة وداخلية على السواء، ويقدم لنا خلال هذا لعمل إمكانية تعدي إلى عديد من التفسيرات. ولكن نكتفي بحثنا هذا في تفسير الأشخاص الخمسة على أن دورهم في القصة أكثر من الغير.

هـ. استنتاج

إن الأدب مؤسسة اجتماعية يستعمل اللغة كوسائلها ويقدم الأدب "الحياة". فالحياة أكثرها محيط بالوقائع الاجتماعية. والأدب محاكاة العالم والدنيا الذاتي الإنساني. وكذلك، للأدب علاقة بالمؤسسة الاجتماعية المعينة مرارا.

ويقدم ادبنا هذا في رواية "ليل وقضبان" أنواع الوجوه من الوقائع الاجتماعية وهو يتمثل ويعبر تجاربه ونظريته عن الحياة، والحياة في سجن أبي زعل بمصر؛ التصور عن حالة حياة السجين في حين والمجتمع خارج السجن في حين آخر. فالعلاقة بين كلتا الحالتين يسبب ظهور التأثير بينهما: التأثير الإيجابي والسلبي كنتيجة من تلك

العلاقة. والواحد منها نعرف عن سلوك وأخلاق العمال في القصة، كيف يشكل السلوك وكيف يتغير وكيف ينتشر هي مجال البحث السيכולوجي؛ علم يبحث فيه سلوك الفرد في علاقته بالمنطقة.